شمالي افريقيا : من لن أورتزن

قامت في بلدان كثيرة في الشرقين الادنى والاوسط ، كالجزائر وتونس والجمهورية العربية المتحدة ولبنان وايران ، مدارس للادب الفرنسي. لكن لم يحدث الا في بلدان شمالي افريقيا ان ابدى الكتاب اهتماما وثيقاً بحياة الشعب . ذلك لان اللغة الفرنسية في هذه الاقطار تكاد تكون لغة الكلام والاتصال بين الكاتب والقارىء ، وحين يفكر كاتب عربي ناشىء من شمالي افريقيا في البدء بوضع كتاب فانه يفكر حالا باستعمال اللغة الفرنسية كوسيلة للاداء والتعبير. ومع هذا فان كتب هؤلاء المؤلفين تظل في صلبها نتاج العالم العربي . ولا يربط بينها وبين الرواية الفرنسية كما نألفها ، سواء من حيث الشكل او من حيث المضمون ، الا شيء يسير .

وفي الاشهر القليلة الماضية نشر ثلاثة من المؤلفين العرب الذين يكتبون بالفرنسية في شمالي افريقيا ، والذين قد وطدوا مقامهم كادباء وألفوا عدداً من الكتب ، نشر كل منهم رواية جديدة نحا فيها منحى جديدا في الاسلوب وزادت في اهمية نتاجه .

ابرز هؤلاء الثلاثة (بل ابرز جميع المؤلفين العرب الذين يكتبون بالفرنسية في شمالي افريقيا) هو بلا شك ادريس الشريبي . وهو مغربي في اواخر الثلاثينات من عمره ، تلقى دراسة عربية تقليدية في جامعة القيروان كما درس في معهد فرنسي في الدار البيضاء . وفي ١٩٥٣ ذهب الى باريس ليتخصص في الكيمياء ، لكنه سرعان ما هجر موضوعه هذا وكرس نفسه للكتابة . وهو يعيش في فرنسا منذ ١٠ سنوات وله زوجة فرنسية.

قليل هم الكتاب في اوربا ، من اية جنسية واية سلالة ، الذين لكتبهم ما لكتب ادريس الشريبي من اسلوب فني باتر . وتتجلى بوضوح في روايته الاخيرة « الميراث » عناصر السخرية والتهكم والرأفة التي يتسم بها نتاجه . كما يتجلى فيها مزيج من النقمة والوداعة ومن العبارات النارية والاقوال البسيطة الحكيمة . ان الشريبي ثائر في جميع كتاباته ، غير انه في « الميراث » يبدو كأنه قد اخذ يتفاهم اخيراً مع نفسه . ولقد نجح الآن للمرة الاولى في كتابة رواية (هي روايته الخامسة) لا تقف فيها آراءه واعتقاداته الشخصية حجر عثرة في سبيل القصة . ان هذه الاراء والمعتقدات ما تزال موجودة في روايته الجديدة ، لكنها منسجمة مع القصة وتعمل على تقويتها .

كتب الشريبي روايته بصيغة المتكلم ، وراوي القصة وبطلها عربي مغربي يسكن في فرنسا منذ ١٦ سنة وقد ثار على ابيه وطريقة حياته فسافر للخارج ليستوعب الحضارة الغربية . ونجد البطل هذا ، المسمى ادريس فردي (وقد يكون ادريس الشريبي ذاته طبعا) في مطلع الرواية متزوجا من امرأة فرنسية وابا لطفلين . وهو سعيد في زواجه لكنه يعاني تمزقا داخليا لانه لم ينجح في تكييف نفسه والتأقلم مع الحضارة الجديدة . وتصله برقية من الدار البيضاء تشعره بوفاة ابيه الذي لم يكن قد رآه او كتب له رسالة خلال سني اقامته بعيداً عنه . فيأخذ اول طائرة الى بلده ويصلها عند موعد الدفن . ويكون على وشك قرع باب بيته عندما يسلمه صبي برقية باسمه . واذا بالبرقية من والده ونصها : مرحبا بك في منزلك.

ويفتح له الباب احد اخوته ، نجيب ، ويقوده الى حيث اجتمعت العائلة للدفن . ويقول نجيب الضخم الجثة بصوت مرتفع : « ها هوذا . سمعت قرعة على الباب ففتحته واذا بالقارع ادريس . لا لا تستطيع ان تتكهن بتصرفاته . ذات يوم هجرنا وسافر . بعيدا عن ابيه وعن امه وعن

اخوته . ولم يكن يعرف حتى ان يسوق سيارة . وعندما خيل الينا انه قد مات ، اذا به يفاجئنا وهو نحيل كذيل بقرة ويحمل حقيبة صغيرة تكاد لا تتسع لوجبة من طعامي . اتعرفون ما قال لي ؟ قال : أأنت نجيب فردي ؟ انا عامل البريد . واحمل برقيـــة لك » . « وقالت امي هامسة : اصحيح هذا ؟ احقاً هـذا انت يا ادريس ؟ ولم اعرف بماذا اجيب . وقبلت يديها وجبينهـا وشعرها » .

ويأخذون ادريس الى الغرفة حيث كان ابوه ممدداً . كان رجـل آخر هناك ، وقـد نشر فوقه غطاء . « وازحت الغطاء عنه ، ونظر الرجل اليّ وقتا طويلا بصمت . وكانت عيناه حمراوين . وقلت : اخي ، مديني . فاشار الي بان اسكت ، وهمس في اذني : تقدم واغمض عينيه . لقد كانت هذه رغبته الاخيرة » .

ويبدأ ادريس يفكر : اهذه فعلا عودة الابن الضال ؟ ثم تقرأ وصية ابيه (وهذا المشهد رائع وهو المشهد الرئيسي في الكتاب) فيجد ان اباه قد حرمه من ميراثه . بل ان اسمه لم يذكر في الوصية مطلقاً . اما بقية اخوته فينال كل منهم ما يناسبه : فمديني يصبح رأس العائلة الجديدة مع انه ليس اكبر الاخوة ، وتقول الوصية (وكانت مسجلة على شريط) في تبرير ذلك : « لانك لست رجلا عاطفيا تماماً وفي الوقت ذاته لست واقعيا تماما ، وبهذا فانك تجسد الفترة الانتقالية » . اما نجيب ، الضخم الجثة والضئيل العقل ، فقد ترك ابوه له معاشا شهرياً وعينه مراقبـاً للعمال . واضاف الصوت على الشريط : « لحسن الحظ انك لست حاكما للبلاد » ! ثم يأتي دور كامل وهو الابن الذي جاء للمأتم انما ليحظى بميراثه . قال له الصوت : « ان طبيعتك الا تعرف السعادة بدون المال : لك شك قدره ٧٤ مليون . لا تنس ان البنك يقفل الساعة الرابعة . ان اسرعت الان امكنك ان تصله قبل ان يقفل وقبل ان تأخذ القطار عائداً الى بلدتك » !

« واخذ كامل يضحك ، وقال : ما اخف ظل ابينا ! اتدخن سيجارة ؟ ، ووضع يده في جيبه المغلوط ، لانه عندما اخرجها كانت فيها ساعته » !

ان رواية الشريبي هذه مثل من الامثال ، على الطريقة الشرقية ، وتجمع بين الحاضر والماضي ، وتضم تعليقات على بلاد المؤلف التي تواجهها مشاكل التحرر : ما الذي ورثه الجيل الحديث الجديد عن الجيل القديم التقليدي ؟ وهذا ينطبق لا على المغرب فحسب بل على جميع البلدان الحديثة العهد بالاستقلال . ما الذي تركه الغرب لها ؟ ان ادريس الشريبي كاتب عربي تمتد رؤياه الى ماهو ابعد من بلده هو .

يقول : « لقد مات ابي وها انا الآن مستقل . لكن ما زال يخيم الجهل والتقاليد المتأصلة والشقاء وكل المخلفات التي تمنع الانسان من ان يكون حراً . لقد جاهدت زمنا طويلا وفكرت في مشاكل الشرق والغرب . لكن أما زال هناك حقاً شرق وغرب ؟ »

ويظن ادريس ان المزج ممكن بطريقة من الطرق ، فيعود الى اوربا . وفي المطـــار يتسلم تذكرته ، وكان ابوه قد تركها له قبل وفاته بشهرين ، ويجد معها في الظرف رسالة هذا نصها : « احفر بئرا يا ادريس وانزل فيه لتفتش عن الماء . ان الضوء ليس على السطح بل في الاعماق . في اي مكان وجدت نفسك ، حتى في وسط الصحراء ، ستجد ماء على الدوام . ما عليك الا ان تحفر ، وتحفر ، يا ادريس » .

ورواية « الميراث » قصيرة ، كمعظم روايات الشريبي ، لكن فيها من العمق اكثر مما في رواية تفوقها في الطول مراراً ، وتعبر عن اكثر مما تعبر عنه مثل هذه الرواية الاطول .

اما الكاتبان الآخران فهما آسيا جبار ومحمـــد ديب ، وكلاهما من الجزائر . ويختلف اسلوباهما عن اسلوب الشريبي : فيبدو محمد ديب ان قارناه

به كاتباً خافت الصوت يهتم بحشد اكبر عدد ممكن من التفاصيل في كتابه . وتجري حوادث روايته الاخيرة « من يذكر البحر » في مدينة تشبه كثيراً مدينة تلمسان حيث ولد المؤلف وصرف معظم سني حياته الاربعين او يزيد قليلا وكانت مركزاً هاماً في الانتفاضة الجزائرية القومية . كانت روايات محمد ديب السابقة تتسم بالواقعية وتدور معظم حوادثها حول اختباراته الشخصية الخاصة وتصف ما عاناه هو من مصاعب ومشاق ، وكان يكتبها باسلوب شعري فضفاض لكنه قلما يعنى فيها بالقصة او بتطور الاحداث . وفي المدة الاخيرة ترك بلاده واستوطن فرنسا ونشر ديواناً من الشعر ينم عن شاعرية خصبة ، وتدل روايته الاخيرة على انه قد اصبح مؤلفاً من طراز اول . وقد عدل فيها في طريقته واسلوبه تعديلا عميقا .

وقد حاول محمد ديب فيها ان يعطي صورة انطباعية شاملة عن الحياة التي كان يحياها السكان العاديون من عرب الجزائر في فترة الجهاد ، وما كان فيها من مخاوف وقلق ومن صبر وايمان بالقدر . ويقول في ختام كتابه انه قصد ان يترك في ذهن القارىء صورة لكابوس طويل الامد ، ولهذا فان شكل الرواية الواقعية لم يكن ليناسب وصف مثل هذا الموضوع ، فاستخدم شكلا آخر هو شبيه بالقصص القائمة على الخوارق العلمية ، واعتمد كثيراً فيه على الرمز . مثال ذلك ان البحر في عنوان الكتاب هو بحر المتاعب والمآسي الذي يحيط بسكان المدينة العرب .

تشبه حوادث الكتاب الحلم ، والانطباع الشامل الذي يخرج به القارىء هو صورة كابوس . لكن قوة الكتاب هي في الوقت ذاته نقص فيه كرواية : فهو كتاب ذهني لحد كبير ، ويعجز عن اثارة اهتمامنا بالاشخاص فيه : فهم ايضاً رموز .

اما رواية آسيا جبار الاخيرة « ابناء العالم الجديد » فتدل هي ايضاً على حدوث تبدل كبير في الاسلوب والطريقة منذ روايتيها السابقتين .

نشرت هذه المؤلفة الجزائرية الشابة روايتها الاولى وهي في عامها الحادي والعشرين ، ولم تبلغ الان السابعة والعشرين بعد . تلقت دراستها في الجزائر ثم سافرت الى باريس لتدرس التاريخ وتحصل على شهادة ، وعادت بعدها الى شمالي افريقيا حيث مابرحت لثلاث سنوات تعلم التاريخ اولا في تونس والان في جامعة الرباط . وفي حين ان كلا من روايتيها الاوليين دارت حول شخص رئيسي واحد كان امرأة وعالجتها بصورة شخصية ، فان المؤلفة تجعل كتابها الجديد يدور على نطاق اوسع بكثير وتصور فيه صورة موضوعية لعدد وافر من النساء العربيات . كما انها تحاول فيه شكلا جديداً وتجارب جديدة من حيث الاسلوب ، فالحوادث تتنقل باستمرار امامنا وخلفنا من حيث الزمان وتكاد تتخذ شكلا دائرياً ، كجمل يدور ويدور حول بئر ويظل يمر بالنقطة ذاتها . وقد نجحت في تجربتها هذه ، وربطت الرواية معاً عن طريق الاشخاص ، الذين كانوا كحلقات في سلسلة .

تجري حوادث هذه الرواية ، كحوادث رواية محمد ديب ، في بلدة جزائرية لم تسمها ، لكن في تاريخ سابق لروايته وفي مرحلة اقدم من مراحل الثورة القومية . وتحاول آسيا جبار ، كما حاول محمد ديب ، ان ترسم صورة شاملة للحياة في هذه البلدة ، الا انها عنايتها الكبرى موجهة الى رسم ما كان لهذه الحياة من تأثير على النساء فيها . فالرجال يذهبون للالتحاق بقوى التحرير ، اما زوجاتهم فيبقين في البيوت ولا كلمة لهن في الامر :

« قالت ليلى لصديقة لها : تركته يذهب بدون ان اتفوه بكلمة احتجاج . في الساعة العاشرة ذات صباح اخبرني انه سيتركني عند الظهيرة . ساعتين ! تركته يتكلم ثم انفجرت صارخة : وماذا سيحدث لي ؟ انه لم يسامحني قط لصرختي هذه . قال : كيف تجرؤين على ان تفكري بنفسك ، بنفسك فقط ، والعالم من حولك في غليان ؟ آه ، خطبة عسكرية حقيقية ـ لي انا ، لزوجته ! ولم اجبه . وسماني اسماء مختلفة : انانية ، لا مبالية ، من الطبـ

الوسطى ، محافظة ... واعطى اوامره : علي ان اذهب الى البلدة الفلانية ، ان اذهب الى اخته (ولكني لم ادخل عتبة بابها) ، وان اعلم في المدرسة . كان مستعجلا جداً لتركي ، وسيرتاح ضميره عندما يودعني في مكان ما ! »

ليلى هذه ليست بالزوجة العربية التقليدية ، مثل النساء الاخريات في الكتاب : فهي متعلمة ، وهي قادرة على تحصيل معيشتها . ويبدو ان المؤلفة رسمت هذه الصورة كنقد وتوبيخ للزوجات العربيات المستسلمات ، وصورت ازواجهن كرجال في منتهى الانانية . ان كتب آسيا جبار جميعها تعبر عن الثورة على نوع الحياة التي تحياها اغلبية مواطناتها وما فيها من قيود ومن انغلاق . وتبدو في كتابها الجديد هذا ناقمة جداً على النساء لقبولهن وضع حياتهن القائم وناقمة ايضاً على الرجال لعدم قضائهم على هذا الوضع . وتقول ان للمرأة في « العالم الجديد » ، الذي يبدو في ١٩٥٦ انه آخذ في الاشراق ، آمالا كبيرة .

بينما كان هؤلاء الكتاب الشبان الثلاثة يطورون مواهبهم ، نشر كاتب عربي يصغرهم سناً اول مؤلفاته . هذا الكاتب هو مراد بوربون ، وهو جزائري في الرابعة والعشرين من عمره ويحضر الان الدكتوراه في العلوم السياسية في باريس . اسم روايته « تل الرتم » ، وفيها وعود بعطاء كبير . تجري حوادثها في بلدة في الجزائر في ١٩٥٤ ، وتصور بوجه خاص الحياة المضطربة في الاحياء العربية وما كان يشعر به العرب من نقمة وعدم رضى . ومراد بوربون معني كالكتاب الاخرين عناية كبرى بالفترة المضطربة من تاريخ وطنه وبمشاكل ابناء بلده في الوقت الحاضر . وهو معني ايضاً بمشاكل الشباب العرب الذين تثقفوا ثقافة فرنسية – ويمثلهم في هذه الرواية بطلها عمر ، الذي يحارب عمه في صفوف الفرنسيين لكنه يلتحق هو بصفوف المجاهدين القوميين في الجبال . وهناك شخصيات عربية اخرى تأخذ موقفاً وسطاً بينهما .

يروي المؤلف قصته الفاجعة بعبارات قوية ، لكنه يلطف منها بروح دعابة وسخرية ويورد فيها عدداً من المشاهد المتعة المسلية . يأتي البلدة شخص غريب اسمه شهيد ويفتح مقهى ، وعندما يلبس احسن ثيابه وينطلق الى مكان ما يأخذ اهل البلدة يتراهنون عن المكان الذي يقصده . ويختارون رجلين متزوجين وقورين ليقتفيا اثره . فيتبعانه ويشاهدانه يدخل مقمرة :

« قال احدهما للاخر : لقد كسبت الرهان . قال الاخر : لا انكر ذلك . لكني لم ادخل هذا المكان في حياتي . يقولون انه مليء بالتسلية . واظهر رفيقه امتعاضه : لو انه دخل دار بغاء لكان علينا ان نتبعه اليه . فكر قليلا في سمعتنا . قد يرانا احد ما ، وقد يعرفنا . اني رجل متزوج ولي اربعة اولاد . قال الاخر : الا ترى انها فرصة لنا عز مثيلها . فلا حاجة لان ننسل الى داخل البناية من الباب الخلفي ، كما نفعل عندما نذهب الى بيت عائشة . فنحن هذه المرة قادمان بمهمة ، هي ان نخبر الجماعة عن المكان الذي ذهب اليه شهيد ، كي يعرفوا من الذي كسب الرهان . باستطاعتنا ان نتبعه الى اي مكان ، الى اي بيت ، مهما كان صيته سيئاً ، بدون ان يلومنا انسان » .

وتتجلى سخرية المؤلف بشكل اشد مرارة حينما يتعرض لموضوعه الرئيسي : « ويوقف مخبر للاذاعة يحمل مايكروفونا احد المارة ويسأله : اتفكر بالعربية ام بالفرنسية ؟ فانك اذ تكون ممزقاً بين تفكيرين على هذا الشكل ، الا تشعر بغنى وخصب نتيجة له ؟ »

وفي مشهد آخر يلح ضابط بوليس فرنسي على عمر بان يطلعه على ارفاق شهيد السياسيين : « لن اقول لك ، حتى ولو كنت اعرف . لقد علمني شهيد ان اكون فخوراً بجنسي ، ما دامت المسألة التي تعنيك هي مسألة الجنس والسلالة . عدا ذلك فانك لم تعترف بي قط كمساو لك . لكني اذ انظر اليك اقول لنفسي اني على الاقل اضاهيك .

ان الحقيقة الجوهرية هي اننا مختلفان . انا اتكلم لغتك ، لكنك لا تعرف لغتي . انكم واضحون ومحددو المعالم وليست فيكم اية اسرار غامضة علينا . اما نحن فكتاب مغلق عليكم باحكام».

والاسلوب الذي يعتمده مراد بوربون اسلوب مباشر تنقصه البراعة، وبعض اجزاء روايته افضل منها ككل . لكن لها مزايا الشباب : اليناعة والاخلاص والحماس. وقد استخدم شكلا صعباً لبناء روايته الاولى، شكلا دائريا يشبه الحد كبيرما استعملته آسيا جبار ونجحت فيه اكثر منه. كما أن في اسلوبه وترا لاذعا يقربه من اسلوب ادريس الشريبي لكن دون ان يكون فيه ما في الشريبي من رأفة وتفهم ناضج . ومع هذا فان روايته تحررت من التقليد الادبي للروايات العربية او الفرنسية اكثر مما تحررت منه الروايات السابقة للمؤلفين العرب في شمالي افريقيا ، ولعله من الممكن ان نسميها اول رواية جزائرية حقيقية . وعلى كل حال فان المؤلفين العرب في شمالي افريقيا قد اخذوا يسهمون في الادب الغربي اسهاما مميزا .

أمريكا : من روبي مكولي

ليس في امريكا مجلة ادبية اوطد مقاما واكثر شهرة من المجلة الاسبوعية « ملحق الكتب للنيويورك تايمز ». وقد تعرضت هذه المجلة في الاشهر الاخيرة لهجوم عنيف ، استهل في مجلة ادبية فصلية تحدث فيها عدد من الناشرين والمحررين والمؤلفين والنقاد عن « ملحق الكتب » هذا ، وتميزت احاديثهم عنه بالاحتقار والسخرية والاسف . لكن هذا الهجوم المشترك كان بسيطاً بالنسبة للهجوم اللاحق الذي سدده له الناقد دوايت ماكدونلد . فقد كتب مقالتين طويلتين في مجلة « اسكواير » بعنوان « النيويورك تايمز ، والأسفاه » (وفي هذا العنوان اشارة الى اقتباس من بول فاليري الذي سئل مرة من في رأيه اعظم شعراء فرنسا في القرن التاسع عشر فاجاب « فكتور هيغو ، والأسفاه » . ولعله لم يحدث قط في تاريخ الصحافة الامريكية ان تعرضت مجلة ما - وبصورة خاصة مجلة لها من الوقار ما « لملحق الكتب » - لمثل هذا الاحتقار المدمر والبارع .

ولم تكن هذه اول مرة يشعر فيها المفكرون بنقمة على « ملحق الكتب » . في تنقلاتي خارج امريكا كثيراً ما كان يسألني الادباء والمتأدبون ذات السؤال : هل توجد في الولايات المتحدة مجلة جيدة للتعليق على الكتب ، مجلة تشبه « الملحق الادبي للتايمز » اللندنية ؟ اما جوابي فكان ، بالطبع ، لا . ومعظم القراء يرون ان « ملحق الكتب » هو المجلة الوحيدة التي عندنا والتي تشبه تلك المجلة اللندنية شبهاً بعيداً - وكما يقول ماكدونلد « والأسفاه » .

ما الذي يعرّض « ملحق الكتب » لهذه الهجومات ؟ لاقل اولا ان مصدر هذه الهجومات هو طبقة المفكرين الواعين في الادب الامريكي ، من الكتاب والنقاد الذين يحكمون على الاشياء بمقاييس صارمة لا تلقى دائماً قبولا لدى القارىء العادي ، وهي مقاييس تتبعها المجلات الادبية الراقية مثل « بارتزن » و « سيواني » و « كنيون » . اما « ملحق الكتب للنيويورك تايمز » ، من الوجهة الاخرى ، فقراؤه جمهور واسع جدا يقوم في معظمه على من يقرأون الكتب من حين لحين فقط وبصورة عابرة ولاسباب غير ادبية (كثير من